جزيرة البط

obeikan.com

obeikan.com

جزيرة البط

مجموعة قصصية

محمد علي برباش

حسناء للنشر

obeikan.com

obeikan.com

إهداء

إلى

من منها البداية و إليها المنتهى..

أمي

إلى

رفيقة الدرب و أنيسة السفر..

زوجتي

obeikan.com

obeikan.com

عم بسطان

أوقف نزيف الصمت صوت خفير يتجشأ بعيدًا
- مين هناااك؟ "بنبرة باحث عن الونس"
ليرد عليه خفير آخر بصوت أنعم
+ مين هناااك "يقصد نحن هنا"
ليست كل "مين هناك" ك "مين هناك"؟
هي ليست سؤالا أو جوابًا: هي كلمة السر أمام بوابات الليل وجواز السفر لعالم آخر لا يدركه إلا الخفراء ومن يستطع أن يفك شفرة ال "مين هناااك" و فهم دلالتها.

obeikan.com

نزل الدرج مهرولا وهو يقلد صوت الخفير الأجش
- مين هنااك ... مين هنااك
بعدما سألته جدته
- نعناع ولا جرنفل يا حمد؟
كانوا يشربون الشاي جده وجدته وعم "بسطان الغفير" بعد العشاء، يشربه دورًا ثانيًا بالنعناع أو بالقرنفل.
لم يصدقوا إجابته على السؤال التقليدي
- نفسك تبجى إيه لما تُكبر يا حمد؟ "سأله جده العمدة مداعبا"
ليحل الصمت من جديد

قريتهم: "سكساكة" شبه جزيرة في النيل يربطها باليابسة لسان صغير أخرجته من فيها لتلامس بالكاد ضفة النهر الغربية و تخرج -بقصد- خارج تصنيف الجزر.

أجابه زاعقا في وجهه بدلال حفيد قُتل أبوه غدرًا.

- غفير، عاوز ابجى غفير حداك يا جد وأجول مين هنااك.

بدا الجد مصدومًا ولم ينبس ببنت شفة وهو يعض على شاربه المشوش بحركة عصبية يعرفونها جيدا ويرنو إلى عجوز تخرج بدورها زفرة حارة تعلن بها براءتها.

- هيييييييييح "ليتضوع المكان كله بنكهتها الساحرة"
لم يقو على النظر إليه، كان يعرف أنه السبب، أورثه عنه كل شيء؛ اسمه ورسمه حتى ثأره.

كان هو من قتل جارهم منذ سنين ولما سألوه عن السبب أجاب إجابة باهتة بلا لون تخفي أكثر مما تفصح
- نسي أصله الفلاح ابن لكلاب

كان اعتزازه بأصلهم العربي مبالغ فيه، رغم أنهم قبائل نازحة من شبه جزيرة العرب إلا أنهم يرون أنفسهم أعلى كعبًا وأرفع شأنا من السكان الأصليين (الفلاحين) فلما كبر أبناء الفلاح لم يأخذوا الثأر منه فهو قاب قوسين أو أدنى من الموت، قتلوا "نوارة البيت" أبيه المحامي المستنير.. آخر من تتوقع أن يكرهه أحد لا أن يغتالوه بضربة ساطور على رأسه ليشقوها نصفين ويهجّوا من القرية.

ما زال الثأر عالقا كحبل مشدود ينتظر من يقطعه، لما أراد أعمامه البحث عنهم والأخذ بالثأر صاح جده فيهم:
- مش هياخد تاره غير وَلده حمد

كلام عن علاقة مشبوهة بين جده وزوجة القتيل عرف هذا من عم "بسطان الغفير " رجل نوبي، نظيف، بشوش، تجاوز الستين، مقطوع من شجرة، ومدمن حشيش، يهمس الناس سرًا بأنه مخصي، لا يتكلم إلا لمامًا فإن تكلم أسرك بحديثه المائز، جلبوه طفلا في سن السادسة من النوبة من قبيلة يقال لها "الفاديجا" ، كانوا ثلاثة مات الاثنان وبقي هو، في الأصل خفير ولكنه الآن لا يعدو أن يكون خادمًا وجليسًا وحارسًا له، الجميع يحبونه، مُهاب ويتحاشاه الناس.

كلفه العمدة بخدمة حفيده بعدما تزوجت أمه من عمه.

كان "حمد" كذلك الطائر الذي ما إن يجن الليل حتى يعلق برجليه في فرع شجرة مدليا منقاره للأرض ولا يتوقف عن الصراخ خوفا حتى ينبلج الصباح.

لما سأل عم "بسطان الغفير" ذات مرة: - ليه جدي ميشيلش بندجية متلك؟

- العمد مايشيلوش بندج يا ولد، الغفر بس يشيلوا البندج.

- ليه بس الغفر عم بسطان؟

ليسترسل كماء النهر المترقرق أمام ناظريهما تحت شجرة التوت الوارفة وهو يلف سيجارة.

العمد لا يحتاجون البنادق يا ولدي يكفيهم بنادق الخفراء " أشعل السيجارة وشفط نفسا طويلا وزفره على مرات متقطعة واستطرد"

الخفراء هم عسس السلاطين وكاميرات المراقبة في "المولات" الحديثة هم عسكر المحتسب وهم جباة الضرائب ومحصلو الرسوم.

من يَعدّون علي الناس الدراهم والدنانير ويعرفون الأرقام السرية لخزانتهم "الديجتال".

خفافيش الظلام يستيقظون حين ينام الكل ويبصرون بلا عيون حين يتخبط الجميع في العتمة.

وحده الخفير ...

"وقد جحظت عيناه واحمرتا وبرقتا بريقًا لم يره من قبل"

يقف على "الدرك" شامخا كالمسيح ليخبر الناس بما أكلوا بالأمس وبما يدّخرون في بيوتهم.

من يتسمع ليلا على النساء غنجهم وعلى الرجال تأوهاتهم، يستطيع أن يخبرهم - لو أرادوا - كيف يصنعون من الحب أطفالا ويعجنون من ماء شهوتهم دُمى وعرائس يدسونها خفية تحت وسائدهم.

يستطيع أن يبهرهم بحكاويه عن العشق الممنوع والعلاقات المحرمة وما هو مدفون في القلوب.

كلب بوليسي مدرب على رائحة العهر والدياثة يكشف المستور ويعريه ولا يبوح به إلا إذا ناوشته فأطلقت نباحه.

يملك سلاحا ولا يقتل، يسير وحيدا ليلا ولا يجرؤ أحد على اغتياله، لبندقيته مهابة ورهبة ولمخزون أسراره سطوة و نفوذ.

وحدهم الخفراء ...

"وقد لف سيجارة أخرى ليشعلها من شعلة السيجارة الأولى" دوي ما يملكونه من فضائح أعلى صوتا من طقطقة بنادقهم الصدئة.

ما في جيب البالطو الميري من أسرار أكثر مما يملكون من خرطوش وطلقات.

أقسى أسلحته صيحة مبحوحة كإنذار مائع لا يمنع حريقا ولا يطفئ نارًا

- ميييين هنااااك؟

"قالها وهو يمطها ويلحنها كمطربي الموالد" يعطيك مساحة للهروب ووقتًا للرحيل، أي سخاء وأي كرم!

لا يعرف القتل التقليدي.

يقتل بأشياء أخرى أشد فتكا، يقتل فيك الروح قبل الجسد، يقتلك وأنت منصوب القامة ومدجج بالسلاح. يقتلك في الغربة هاربا شريدا إن أراد أو يقتلك على سريرك محبوسا قرير البيت لا تقوى على مواجهة الناس، يجبرك على الاعتكاف أو الرحيل بينما تبقى

عفونة سيرتك تزنخ الهواء والأثير، وهو هناك يستدفئ في براءة حمل على الجمر.

وحدهم الخفراء ...

"وقد بدأ صوته يتهدج ويخفت، ماسحًا دمعة تسيح عنوة من عينه وهو يقف بصعوبة، لينعكس طوله الفارع على مرآة النهر"

هم حلقة الوصل بين الظالم والمظلوم، فلا تستطيع أن تظلمهم كالرعية أو أن تحمّلهم مغبة الظلم كالحكام. هم بَينَ بَين، هم الواو بين الشيء ونقيضه بين الفاعل والمفعول.

كقطرة الماء العالقة على ورقة التوت "مشيرا إلى الشجرة فوقهم" فلا هي بقت طاهرة في السماء ولا هي تدنست بتراب الأرض.

تشفق على قطرة السماء لأنها ما زالت حبيسة الرباب والمُزن وتتيه على قطرة الأرض لأنها امتزجت بالتراب وتحولت طينًا، وبقيت هي عالقة عالية بلا دنس تبيت على سرير من ريش نعام -لا تملكه- وتهدهدها الرياح والنسمات إذا واتت.

إذا أرادت سقطت وإذا أرادت تبخرت وصعدت لتبدأ دورتها من جديد، وحدها - تعتقد أنها - تمتلك الخيار والقرار.

هم أوتاد على الحواشي والأطراف لخيام القحبات وصاحبات الرايات الحمر، فلا هم عاهرات مومسات ولا هم طلاب شهوة راغبو سفاح.

أول من تضربه الريح والعواصف إذا هبت وآخر من تلامسه الأجساد البضة العارية إذا تأججت و ترنحت من اللذة.

إذا تراخوا وقع عمود الخيمة السامق على رؤوسهم: هم حماة ضعفه وساترو عورته، يسيطر عليهم بطوله "الهايف" وعملقته الزائفة... مازال جده في حيرة من أمره رامقا عم "بسطان الغفير" بنظرة لوم دفين:

- أيوة عاوز أطلع غفير يا جد

صاح مجددا وهو يتجرع آخر رشفة من كوب الشاي ليشعل جريدة نخلة من "الراكية" أمامهم ويعلقها بحبل على منكبه كالبندقية لينفث فمها شررا.

ويهرول في الشوارع والحارات قد ملك الأرض وما عليها، أصبح أخيرًا لا قاتل ولا مقتول، أصبح كرباجًا لا جلادًا ولا مجلودًا، يزعق مجلجلا فقط بلا مجيب:

- مين هنااااك؟

وقد تورد وجهه بابتسامة ما عاد يذكرها وجذوة بندقيته تتشظى فى الفراغ.

صارت عدوى وصنع كل الأطفال مثله فصاروا عشرات من الخفراء يرسم وهج جمر جريدهم من بعيد كواكب ونجومًا تتلألأ في الظلام، وتتعانق عشرات الصيحات:

- مين هنااااك

- مين هنااااك

انتشى لأنه صاحب الفكرة، وابتهج لأنه رأى حياة تدب في البيت الخراب وصبيته تشاركهم اللعب رغم الثأر.

توشك أن تنطفئ شعلته، نحّاها عن كتفه بجدية مقلدًا عم "بسطان" وكأنه سيعمّرها بالطلقات ويعود جريا إلى جده ليشعلها له من جديد ولكنه لم يجد أحدًا.

كانوا نيامًا وكانت النار رمادًا تلفظ أنفاسها الأخيرة.

تلاشت من ذاكرته صورته وهو يعلق رجليه في فرع شجرة ويبدأ في الصوصوة حتى الصباح.

وانتشل خلسة بندقية عم "بسطان الغفير" واحتضنها بقوة وراح في نوم عميق.

تمت

❊ ❊ ❊

obeikan.com

المقبرة

عقارب الساعة تشير إلى السادسة صباحا، يستيقظ تلقائيا بلا منبه، بدا مهمومًا كئيبا كالعادة، يتمطى متثائبا في سريره ثم نهض متثاقلا وكأنه مجبر على شيء.

نظر إلى نفسه في المرآة فلمح شخصا بالكاد يشبهه وكأنه هو بعد مائة عام، يشع من عينيه بريق مخيف.

obeikan.com

أشعل سيجارة "كليوباترا" على الريق، دخل الحمام ثم دلف إلى المطبخ ليشارك قطته واحدة بقسماط مغموسة في الحليب، صنع فنجانا من القهوة وراح يستنشق عبقها في تلذذ.

خطا إلى البلكونة بجسده النحيل ووجهه الشاحب وهو يشعل سيجارة جديدة، تلك البلكونة هي منفذه الوحيد للعالم وبلورته السحرية التي يرى من خلالها الدنيا.

ميناء رست عليها سفينة حياته فنسيها ذات مساء القبطان والبحارة.

كرسيه هناك ينتظره في شوق ومنفضة سجائره مازالت تحتضن أعقاب سجائر البارحة.

ماتت زوجته منذ عامين، لم يكتب الله لهما الإنجاب بعد محاولات مضنية.

كان يعمل مدرس علوم في مدرسة إعدادية ترقى بالكاد حتى أصبح وكيلها لمدة ٤ سنوات ثم خرج على المعاش.

لم يتخيل حياته بدون "سميرة" سبحان من أبقاه بعدها عامين حيا يرزق، ما عاد لشيء بعدها طعم؛ لا

تليفزيون - بات لا يستطيع مشاهدته كل ما يعرض يذكره بها - ولا طعام - ما عاد يأكل إلا ما يبقيه حيًا - حتى دواؤه ما عاد يأخذه منذ أسبوعين. فما الفائدة من الإرجاء والإطالة؟!

كان يرغب حقا في الموت والخلاص، يطلبه ويستدعيه ولكنه لم يفكر أبدا في الانتحار. جل ما قرره أن يتوقف عن أي شيء يمكن أن يطيل من أمده أو أن يمد في بقائه.

يبدأ يومه وينتهي على هذا الكرسى الخشبي العتيق لا جرنال يقرأ - فلا جديد - ولا كتاب يطالع فما عاد شيء يستحق المطالعة.

وحدها صفحات الوجوه العابرة تحت شرفته يقرأ ما سطر في طالعها ويفك طلاسم نقشت تجاعيد على جباهها ينقب في العابس منها عن لحظة سعادة منزوية ويفتش في البشوش منها عن حزن دفين.

يستنشق نسيم الصباح منشرحا بدبيب الحياة في الشارع، عربة الفول على الناصية وقد التف حولها الناس كالذباب، عربات تزمجر وهي تُقِلّ الناس لأشغالهم نافثة دخانا كثيفا كحرائق الغابات، أصحاب المحلات يفتحون

و يبخرون ويرشون الماء أمام الحوانيت، أسراب من الأطفال ينطلقون إلى مدارسهم يبدون في "اليونيفورم" كباقات الورود الصباحية على الموائد.

يسلي يومه الثقيل بمشاهدة المارة وإسداء نصائح متنطعة لا يطلبها أو يلتفت إليها أحد.

يختلس النظر للشقق والبيوت عبر النوافذ والأبواب المفتوحة باحثة عن نسمة هواء ربيعية هادئة.

حنين وذكرى تجمعه بكل بيت وكل شبر، أنفاسه المتصاعدة بحدة تصدر صوتا رتيبا كصوت الدف في الأوركيسترا الحديثة.

أولاد يلعبون الكرة في الشارع، يتقافزون كالفراشات في سعادة. كان "حريفًا" في اللعب كرأس حربة في فريق الحي وكانوا يهتفون باسمه.

عليوة ... عليوة

يلقي إليها نظرة في شباكها هناك ليرى إن كانت تتابعه "هبة" أم لا.

تنتابه قشعريرة طاحنة لما رآها تتابعه من عليائها بعينيها العسليتين انتفض كالملسوع وامتطى الكرة.

- رقص رقص إستنى مowwوه شوط شووط شوووط

هااي جووووون

يرفعونه فوق الأعناق فرحين مهللين وعينه معلقة عليها لا يرى غيرها ولا يعنيه سواها.

لم يظفر منها سوى بتلك النظرات، كانت تكفيه ليعود إلى بيته يسترجع تلك النظرة الحنون عشرات المرات ليستشعر معها لذة متجددة لا تنتهي.

ضبط نفسه واقفا على أطراف أصابعه يشاهد الماتش.

أخذ يلهث بأنفاس طويلة متقطعة وسعل سعلة خشنة، عاد إلى المطبخ، ازدرد لقمتين وجرعة ماء وعاد جريا إلى البلكونة وكأن هناك من ينتظره أو أن أحدًا يستشعر غيابه، ربما يتناسى أنه يعيش على هامش الحياة، كالورقة اليابسة على الشجرة انفصلت علاقتها بالفروع

obeikan.com

والجذع ولكنها مازالت عالقة على شعرة تنتظر هفة نسيم لتسقط وتكتب في عداد الأموات.

يراهم محظوظين عن غيرهم لم يمنعهم أحد من اللعب ولم يعرفوا رزالة أم فوزية.

- يااااه فوزية ... أيااااام "زفر في حرقة"

بيتها أمامه على اليمين يعرفه جيدًا، يقع على حافة الجرف الفاصل بين منطقهم والمنطقة الراقية تحتهم، بيت جميلة الجميلات "فوزية نصر" عاشرها عشر ليال فقط، سر لا يعرفه سواه، كانت جميلة بما يكفي لتغري الأستاذ كما اعتادوا أن يسموه رغم فقرها وجهلها وقلة حيلتها "تجري على" أمها المسنة وأخيها القعيد.

على وجهها مسحة من رهبنة بتول وإطلالة من غواية غجرية، تتضوع من طيات جسدها رائحة زيت مقدس ورائحة أنثى في موسم التزاوج.

هي ذاك المزيج النادر في امرأة بين العهر والشرف. دخلت غرفتها متعللة بالنوم وارتدت قميصها الأحمر المطرز بخيوط ذهبية عند منطقة الصدر.

قد أعدا العدة جيدا.

ما عاد يكفيه قبلة خلسة تحت بير السلم أو زيارة خاطفة في شقته.

يراها من بلكونته حيث يقف الآن ويشير إليها بعلامة النصر، تبدو مترددة في خلع القميص والملابس الداخلية يشير إليها يستعجلها.

ألقت ملابسها على السرير وقفزت من الشباك عارية كما ولدتها أمها، بياضها أضاء الظلام من حولها كهالة النور، انتابه خوف مفاجئ وبدت له ساعتها كأنها جنية وهي تخطر عابرة الطريق وشعرها يتطاير وراءها، كانت جريئة بما يكفي. حاول أن يثنيها ويشير إليها بالعودة ولكن سبق السيف العذل، الكل نيام والشارع غارق في الظلمة، قطعت المسافة جريا وصعدت إليه يملؤها الخجل تداري سوءتها بيديها، تندى عن وجهه ابتسامة نصر وهو يحتضنها في فرح.

منذ فترة حكت أن هناك جنا يعاشرها ليلا وهي نائمة معاشرة الزوج لزوجته، وأخذت تدخل في إغماءات ونوبات صرع بين الحين والآخر.

حذرها المشايخ من النوم وحيدة أو ارتداء الملابس الحمراء والمثيرة.

عندما استيقظت أمها وأخوها في الصباح ولم يجداها لم يحركا ساكنا.

وقفا مشدوهين ينظران إلى قطع ملابسها على السرير في خوف وقد ابتلعا لسانيهما رعبا وهلعًا. قصة ليست جديدة يعرفانها جيدا عاصراها مع فوزية مرتين أو ثلاث، طرقت سمعهما كثيرا قصص شبيهة لا يستطيعان تصديقها أو تكذيبها؛ فالجن موجود يعرفانه جيدا بحكم عمل المنطقة كلها بالتنقيب عن الآثار. يعرفون الرصد الذي يحرس المقابر الفرعونية ويتحايلون عليه بالسحر والشعوذة أو بالذبح والقرابين لفكه وصرفه.

كانت تحبه جدًا، هي له وحده - لو أراد - متاحة، بلا أجر وبلا زمن، لو قال لها ارمي نفسك في البحر لفعلت بلا مناقشة أو جدال، لم تكن تعرف أن حبه لها أشبه

بحب الملوك للجواري والإماء وولعه بها أقرب إلى ولع الأسياد بالرقيق؛ حب رغبة وجنس وعشق شهوة وشبق سرعان ما يزول لتحل محله رغبة أخرى بأمة جديدة معروضة في سوق النخاسة.

كانا ينويان البقاء لمدة أطول ولكن لم يتفقا بعدما طلبت منه الزواج الرسمي على سنة الله ورسوله إن كان يحبها فعلا كما يقول.

انفصلا فغضبت وندمت على ثقتها فيه وحبها له، لم يكن يستحق، تحينت الفرصة وعادت كما هربت، ارتدت قميصها الأحمر وملابسها الداخلية و نامت على سريرها وكأن شيئا لم يكن.

فلما استيقظا (أمها وأخوها) وجداها كما تركاها في نفس نومتها مستلقية علي ظهرها شعرها الأسود الطويل يغطي وجهها الملائكي.

أقسمت كالعادة أنها لم تفارق السرير قط هي كما نامت بالأمس، كان كابوسًا فقط جثم على صدرها وكأنه حقيقة.

لا جديد سوى بعض عضات وخربشات وخدوش في الرقبة والصدر والظهر.

لم تكن تكذب، هذا فعلا ما كانت تشعر به، لم يكن سوى وهم أو كابوس، لم يكن هو من فعلت هذا من أجله كان شخصا آخر غير الذي أحبته، شخصًا لا يفرق شيئا عن ذلك الجني المغتصب الذي يزورها ليلا حتى باتت تنتظره في شغف.

ذكر نهم لا يعرف الحب فحولته لا تقاوم ورغبته لا تنتهي، لمساته ندوب وقبلاته حروق، أحضانه كسور ورضوض، ماؤه كماء البحر لا ينفذ ولا يعطب، معاشرته متعة وإن بدت مختلفة وعنيفة.

قالت لهما فصدقاها، جمالها يستحق وأنوثتها لا تقاوم واختفاؤها وظهورها في غمضة عين يؤكد صدقها.

ندت عنه ابتسامة صفراء ثم قطب ثانية وقد تذكر أنها ماتت:

- الله يرحمك يا فوزية "قال في وجوم"

وجـدوها مذبوحـة مـن الوريـد للوريـد حليقـة الـرأس بالموسـي وعلـى بطنهـا وشم غـائر فـي الجلد، يقـال إنهم ذبحوها قربانا لمقبرة عم بكر، مسح دموعًا ساحت من عينيه وهو يتمتم:

- عم بكر أسعد ... يااااه أيااام

يفرك جبهته بشدة وهو يرنو بعيدا إلى بيت مهدم، خرابة مكتظة بأكوام الزبالة، كلاب ضـالة وقطط وفئران ترتـع فيها وتلتهم بقايا طعام.

يعرف عم بكر جيدًا بحمارتـه العمياء التـي وجدها ذات صـباح ملقـاة علـى حافـه النهر فأخذها وتكفل بهـا ربمـا رأفـة ورحمـة أو ربمـا الحاجـة إليهـا لينقل علـى ظهرهـا تـراب الحفـر المتزايـد مـن هـوة عميقـة تحـت بيتـه. بـاع مـا وراءه وأمامـه علـى المشـايخ والـدجالين والعمـال للوصول للمقبرة المملوءة بـالكنز، مـازال هنـاك بصـيص أمل.

لما كفر بالمشايخ والدجالين قرر أن يستدعي خبيرًا أثريا يسأله عن الوضع.

ذعر لما رأى الحفر، لم يكن يتخيله بهذا العمق؛ ستة أمتار رأسيًا ثم امتداد ثلاثة أمتار أفقيًا ثم عمق أربعة أمتار رأسيًا ولمبة وحيدة معلقة في الأسفل ومروحتان فوق لضخ الهواء في العمق وعروق خشبية عملاقة للمحافظة على ثبات الأرض.

فتش في المكان وتراب الحفر ثم زفر زفرة غضب:
- المكان دا مفيهوش حاجة، دا مكان معيشة وحياة مش مقابر ودفن.

قال وهو قابض على قطعتين صغيرتين من الفخار. انتفض عم بكر وبدا كمسخ برأسه الكبير وقامته المنحنية بشراهة وأمسك بتلابيبه وزعق كالمجنون:

- مفيش ازاي يعني؟ إنت مش عالم آثار انت حمار متفهمش حاجة.

" وهو يطرده من البيت شر طردة" وعاد للحفر وكأن شيئًا لم يكن، شيء ما بداخله يدفعه دفعا إلى مواصلة الحفر ربما نقطة النهاية ما تزال على بعد سنتيمترات في باطن الأرض.

- الله يرحمك يا عم بكر " قال و هو ينظر للسماء"

مات منذ عام تحت الحفر وقد سقط البيت كله على من فيه، ماتوا جميعا، لم يكن يعرف أنه يحفر مقبرته هو ليس إلا.

جن المساء وانقطعت أرجل المارة وتوقف الأولاد عن اللعب.

راقب الليل وهو ينسج خيوطه خيطا خيطا في الثوب الابيض حتى اختفى بياضه، يتتبعه وهو يمر كساعي بريد على البيوت ناشرًا السكون والخمول. حبل ذاكرته طويل لا ينتهي تتخلله عقد بعدد النجوم، لكنه وقت الرحيل.

غُلقت الشبابيك والأبواب، غاب نبض الحياة وانتهى العرض، تراجع خطوتين إلى الوراء، أغلق باب البلكونة، وضع فنجان القهوة في المطبخ، ازدرد لقمتين، شرب زجاجة ماء ساقعة كاملة، فتح علبة تونة للقطة وملأ لها صحنا بالماء، مسح على ظهرها وألقى عليها نظرة وداع.

دخل غرفة نومه، خلع ملابسه كاملة على غير العادة، أغلق زر النور، تعاوده صورة زوجته التي تزوره في أحلامه منذ مدة وهي تمد إليه يدها لتأخذه إلى مكان ما، تسبح بثوب أبيض فضفاض لم يعهده من قبل، تشعره بالحرج نظراتها اللعوب كالتي كانت تطلقها عليه ليلات الخميس.

ينز من جسمه شوقه إليها ماءً يبلل فراشه، يلومها في سره على الهجر والفراق. أي جفاء هذا يا سميرة؟

بكى كطفل في المهد، تمدد على ظهره، وأسند رأسه على فخذها الوافرة وأغمض عينيه ومات.

تمت

❊ ❊ ❊

obeikan.com

جزيرة البط

رأوه مجنونًا... لما طلب منهم ألا يطفئوا مصابيح الزنازين في الصباح: فلا صباح يأتي خلف جدران السجون.

(استجننوه)... لما رسم بقطرات دمه في سقف الزنزانة شمسا ضاحكة بين غمامتين كئيبتين: فرسم الدفء في الصقيع قد يبعث على الدفء.

obeikan.com

كانت ليلة شؤم ... لم يستطع أن يغالب دموعه وهي تسيل معربدة على خده الأسمر المكتنز و لحيته النابتة حديثا ليستحيل معها كوب شايه مرا علقما.

يركز ظهره على الكرسي الخشبي المبطن بالبردي مداريا وجهه براحتيه ليسترسل في نحيب مكتوم.

كانت ساعة مغربية و الليل ينفخ سواده في الأفق و عم حسن الرجل الستيني صاحب "الغرزة" يشعل "رتينة" "الكلوب" بيد مرتعشة في حذر ليواجه نوره وحيدًا في جسارة الظلام القادم بسرعة الريح.

رذاذ الأمواج المتلاطمة علي الصخور تحتهم لطف شيئا يسيرًا من الحر القائظ، هي الشيء الوحيد المسموع في المكان ليضحي صوت تصادمها كصفعات الفتوات على قفا الحرافيش في الأزقة.

تعلقت كل العيون بالراديو العتيق الوحيد بقرية شكشوك النائمة في حضن بركة قارون، والنساء يتربصن فوق الأسطح ينتظرن البشارة.

صـاخت كـل الآذان لسـماع بيـان عاجـل ينتظـره الجميـع ويخمنـه الكـل إلا هـو. وكـأن علـى رؤوسـهم الطيـر وهـم ينصتون مساء يوم السبت لبيان تنحي الملك فاروق لولي عهده و مغادرته البلاد على يخته المحروسة.

لو كان يعلم ما سيلاقيه في مقبل الأيام جراء دموعه تلك لكتمهـا حتـى ولـو فاضـت روحـه، ولهتـف منافقًـا معلنـا فرحته في عصبية وتشنج مع الهاتفين:

يسقط الملك فاروق .. يسقط الملك فاروق

عاد إلى بيته يجرّر قدميه في حزن لم يعرفه إلا مع وجع فقدان والده منذ عـام، متجـاهلا سـهام العيـون المرشـوقة في قلبه ليرتمي على مصطبة للنوم في بيتـه ويبكـي بكـاءً مريرًا ثقيلا ويعلو صوته بالنشيج بلا خوف وهو قـابض على قصاصـة من مجلـة بهـا صـورته مـع الملـك فـاروق وهـو يحمـل عنـه الـبط، تحتهـا بخـط صـغير بالعربيـة والإنجليزية:

[الملك فاروق في رحلة صيد البط بالفيوم عام ١٩٤٦]

{ King Farouk in a Duck Hunting Trip in Fayoum ,1946 }

بعدها بشهور كان البوليس السياسي في بيته ليعتقله بتهمة الرجعية ومعاداة الثورة وقيام الجمهورية، لم يكن يعرف ساعتها ما معنى الرجعية ولا ثورة أو جمهورية أصلا، ودليل اتهامه دموعه الغزيرة على الغرزة تلك الليلة أمام الجميع وقصاصة من مجلة تجمعه بالشيطان الملك.

- شدي حيلك يا أمه أنا كدة هتأخر.

- الملك في الأوبرج وزمانه على وصول.

- حاضر يا حربي باجهزلك الهدوم أهوه "وهي ممسكة بإبرة وخيط"

يرتدى بنطلونا لأبيه كان يلبسه في رحلات صيده بعد أن "أيفته" أمه ليصبح على مقاسه وبرنيطة صيادين على رأسه، ممسكا بالصفارة وقد علقها إلى عنقه بفتلة دوبارة، نعم الصفارة فدوره ينحصر في الصفير.

هو والملك في لبدة ككمين للبط المهاجر وسط البحيرة يختبآن خلف سعف النخيل والبوص وحولهما "الخيَّالات" في المياه مربوطة بالحبال والملك ممسك

بندقيته الخرطوش متربصًا لهبوط البط المحلق فوق رأسيهما.

كان يمكنه إصدار ثلاثة أصوات مختلفة بمهارة فائقة لذلك وقع الاختيار عليه من العمدة، صوت طعام، صوت أنثى، صوت ترحيب.

- اسمك اية ولد؟

- حربي يا بيه.

- بيه؟ أنا بيه؟ هههه

- إنت شاطر كتير حربي.

بط وفير من كل الأنواع والملك في منتهى السعادة، براءة في عينيه أشعرته نحوه بألفة وود.

- صفر حربي صفر كمان.

لينفحه الملك جنيها وبطتين في آخر اليوم ووعده بأنه سيكون رفيقه في رحلة صيده القادمة.

خمسة عشر عامًا في المعتقل لم ينس هذا المشهد يومًا، بل كان هو سلوته الوحيدة. يا لقسوة الحياة، نفس المشهد سر سعادته وسبب شقائه.

خمسة عشر عامًا كاملة نهبت من عمره نهبًا بلا مبرر بلا محاكمة أو دفاع، عزاؤه الوحيد أنه مازال شابًا في الخامسة والثلاثين.

خمسة عشر عامًا كاملة صار فيها شيوعيا مرة وربّى "سكسوكة" وقرأ لماركس ولينين ثم أصبح "إخوان مسلمين" و أطلق لحية خفيفة مهندمة وطبع على سحنته ابتسامة لزجة لا تغيب وقرأ لحسن البنا والهضيبي.

ثم كفر بالاثنين وأصبح لا شيء، لا منتم يكره التنظيمات بحدتها وقساوتها ودغمائيتها ويمقت السياسة بلزوجتها وميوعتها وديماجوجيتها.

خرج بعد النكسة فى عفو جماعي فلم يعرف يوما لماذا اعتقل ولا لماذا أو من أفرج عنه؟

لم يكن أحد بانتظاره سوى بوابة السجن الحربي- و قد انفتح خلالها باب صغير كطاقة نور يسمح بخروجك

منحنيا- وملابسه الرثة التي اعتقل بها ومحفظته "الجلد الطبيعي" التي ورثها عن أبيه.

ساقته قدماه إلى نفس المكان القديم "جزيرة البط" حيث يتجمع البط المهاجر في استراحة سفر..تعانق خطواته تراب الأرض في شوق محموم، يبصق عصارة أعوام القهر أمامه كالدليل، تتساقط عن كاهله عذابات وذل السجن والسجان، تاركة على جلده علامات لن تنمحي، لم يزل قويًا فتيا، ولكنه بدا منحنيًا مقوسًا فلم يعد بمقدوره صلب عوده بما يكفي، كأحدب نوتردام لا يستطيع النظر إلى السماء إلا لو استلقى بظهره على الأرض.

تذكر أنه حر أخيرًا فطوّح يديه كمن يسبح في الفراغ وأخذ نفسًا عميقا طال انتظاره، يدندن بلا وعي أغنية جرت عنوة على لسانه:

علي عليوة ياللي

ضرب الزميرة ياللي

ضربها حربي ياللي

نطت في قلبي ياللي

أي ديناميكية عجيبة تدير تروس تلك الذاكرة؟ أشياء تطفر بدون مقدمات بلا داع و أشياء تغوص بلا رجعة وقت الحاجة. مع إحساسك أنك القابض على زمامها لا تستطيع أن تحجب ظهورًا أو أن تنبش مطمورًا.

لما رأى سرب بط يحلق فوق رأسه شعر نحوه بألفة لم يجدها مع إخوة وأهل قد تبرأوا منه فور اعتقاله، فلم يزره أحد طيلة مدة سجنه بعدما ماتت أمه حزنا على فراقه.

دعك رأسه بقوة مختبرًا معلوماته، أي نوع من البط هو؟

- شرشير ولا حمراوي ولا زرقاوي ولا خضاري و لا أبو فرو؟

يسأله أبوه في مكر وقد ارتسمت صورته على صفحة الماء.

- استنى يا آبه ماتقولش..."واضعًا أصابعه النحيلة على فمه ليمنعه من الإجابة"

- لا ولا أي نوع من دول كلهم. "قال غامزًا لأبيه في ثقة"

لتغيب صورته بابتسامة رضا يشوبها قلق مع موجة صنعتها نسمة رقيقة مفاجئة.

أمسك صفارته ليطلق رسالة ترحيب بسرب البط "البلبول" المتردد فوق رأسه، تبحث عيناه عن قائده، خبرته علمته كيف يستدل عليه ليراقبه منتظرًا أن يصدر إشارة الهبوط للسرب.

لم يكن يملك بندقية خرطوش ولا حتى شبكة ليصطاد وحتى لو كان يملك ما فعل.

تربع على الشاطئ ودموعه تروي رمالاً اسودّت من الظمأ، دس يده في جيبه ليجد صفارة البط ما تزال بداخله.

وجد حاله في نفس المكان الذي كان يجلس فيه مع أبيه يلاغي البط المهاجر من برودة موطنه في شتاء كل عام ليصطاداه بالشباك.

يسحب نفسًا طويلا من نسيم بارد شهي وينفخ بقوة في الصفارة وهو يرنو للسرب في السماء ولم يستدل بعد على قائده.

ولدهشته لم تزفر عنها بطبطة البط المعتادة أو إشارة الترحيب كما قصد، بل خرج زفيره منها عاليا، مجلجلا، حادًا كصافرة قطار يودع محطته ذات ليل بهيم، موقظا الركاب النائمين على رصيفه بلا هوادة، بتذكرة ذهاب بلا عودة، صافرة تجعل السرب يتشتت ويغير وجهته ليلتئم مرة أخرى محلقا بعيدًا خلف قائده المجهول.

ألقى صفارته مستاءً وقد استطاع أن يغالب دموعه هذه المرة.

وأخذ يدندن بصوت مجروح ولكنه أعلى وأوضح

علي عليوة ياللي

ضرب الزميرة ياللي

ضربها حربي ياللي

نطت في قلبي ياللي

تمت

❊ ❊ ❊

"المسخوط"

استيقظت من نومي شفافا كالزجاج خفيفا كالنسيم، أشعر وكأنني تحررت من قيود وأغلال كتمت على صدري من سنين.

كنت وحدي في نفس البيت القديم، دور واحد من الطوب اللبن والحجر الجيري المسروق من كسوة الهرم وقصر التيه "اللابرانت"، مزينا واجهته بأحجاره الفرعونية في تبجح والمسقوف بالخشب العزيزي والموسكي المدهون بحصى الجوز، أرضيته بلاط أسود باهت ينم عن ثراء زائل، أبواب ضخمة كبوابات الشمس.

obeikan.com

مازال يخيفني الوطواط القابع في ركن السقف وقد لطخ جدران الغرفة "الكموني" بحيضه. صوت "الحنفية" ما زال يزعجنى بقطرة ماء عالقة فيه.

تكتسحني برودة قاتلة تجري مجرى الدم في العروق، برودة موت وفناء أو برودة فراق وهجر. شيء ما بداخلي لم يعد موجودًا، أشعر وكأنني مصاص دماء يعيش من ألف عام فلا هو إنس ولا هو جان - شعور يؤكده و يزكيه زرقة مائعة وشحوب مخيف وعينان كثقبي أبرة في جدار- سيذوب بمجرد شروق الشمس على جلده.

أشق طريقي كمن يمشي أثناء النوم على هدى ذاكرته، هو وحده يعرف وجهته ومبتغاه.

قابضًا على منديل مطرز معقود على جواب وخصلة شعر وصورة فوتوغرافية لفتاة مكتوب على ظهرها "إلى حبيبي زغلول".

حمار لم يتوقف عن النهيق منذ وعيت وشجار وزعيق في بيت الجيران بين زوجين لا ينتهي. وغية حمامي على السطح كما هي قد دب إليها الفناء،

أهـازيج حمامهـا مازالـت تـنهش فـي السـكون كلحـن جنائزي.

صـورة لامـرأة علـى الحـائط يغطيهـا التـراب ترتـدي "الياشمك" ويشع من عينيها دفء، إنها أمي بنفس نظرة التحذير والهلع عند ضريح "الشيخ البقلي".

كـان ضـريحه بـالقرب من قبـر أبـي، غافلـت أمـي وهـي تضع جريدة خضراء علـى تربتـه فـي يوم خميس أذكره جيـدًا ودخلـت إليـه وعرفـت فتـاة فـي نفـس عمـري لتضـبطني أمـي فـي النهايـة وأنـا ألعـب معهـا "عـريس وعروسة" خلف شاهد قبره.

- تعالى هنا يا ابن ...

"تبولت على نفسي من الخوف"

- انت بتعمل إيه هنا؟

جذبت يدي بعنف وجرتنـي وراءهـا كالجاموسـة ليعـانقني شبشبها بين الحين والآخر مصحوبًا بالسباب.

- انـت مـاتعرفش كرامـات الشيخ البقلـي يـا ابـن ... ؟ دا ولي من أولياء الله الصالحين.

ولدهشتي استرسلت بصوت حنون كهديل حمامة تلاغي ذكرًا مارقا من غية قريبة ليعود معها مسلوبًا إلى غيتها.

كيف أنه من عائلة مغربية شريفة وأن تلك البقعة كانت "حمضاية" قاحلة، فحلّ علينا ببركاته فاخضرت وربت، وكيف أنه أنقذ القرية من الغرق لما فاض بحر يوسف وكاد أن يبتلعها في جوفه، نام بجسمه ملفوفا فى حصيرة أمام الفيضان فحول مجراه إلى ناحية "البطس"، وأن المولد الضخم الذي أرتقبه يوم الأربعاء في الأسبوع الأول من شهر أبريل كل عام يقام تخليدا لذكرى مولده.

وأن قطعة الحجر البازلت الأسود بجوار ضريحه هي لعمدة قرية قديم مسخه الشيخ صنما لما كفر بكراماته وفكر في منع المولد ذات ليلة، وكيف أن مأمور المركز الذي عاونه مات منفوخًا هو وفرسه في نفس الليلة عقابا على ما اقترفه.

وكيف كافأه أهل القرية بتزويجه بفتاة بكر كل عام لتنجب له ولي عهده ولكنه للأسف مات عقيمًا.

وأنه لما مات طار بنعشه محلقا في السماء حتى ذاب في الأفق.

- إنت عاوز تتسخط يا زغلول؟ دا أنا ماحلتيش غيرك. "قالت بأسى"

تشبثت بيدها بقوة مستفهما:

- أتسخط إزاي يعني؟ زي العمدة المسخوط؟

أومأت برأسها مصدقة على كلامي

- واللهي ما يقدر يعملي لي حاجة البقلي ده.

قلت بعنترية طفل لم يتجاوز العاشرة وأنا أبكي وأخبط برجلي في الأرض اعتراضًا.

كان اعتراضي وتشنجي لرغبتي في الوصل مع الفتاة أكثر من أي شيء آخر، ولذلك مضيت لأيام بعدها أستظل تحت قبته الفسيحة من الشمس الحارقة دون علم أمي في طريق عودتي من مصنع الطوب حيث أعمل في إجازتي الصيفية.

أنبطح على "الموكيت" الأخضر الزاهي وهي هناك قابعة في ركن الضريح - كانت بنت خادم الضريح - تنظر إليّ في دلال وبراءة طفلة تشتاق لقبلة "العريس".

نظرات أبيها إليّ توحي بأنه عرف شيئا. رغبته في الفتك بي تتجلى على قسماته وانقطاع "نشوى" عن المجيء منذ أسبوعين يشعرني بالقلق.

في آخر لقائي معها أعطتني منديلا وجوابا وخصلة شعر وصورة لها، وعدتها أن أدفنهم هنا بالقرب من الضريح إذا شم أبوها خبرًا.

هل يا ترى قتلها؟ هل وأدها هنا بجانب الضريح؟ هل "سخطها" الشيخ قبلي والآن جاء دوري؟

كنت سائرًا وكأنني شبح لا يكلمني أحد ولا حتى يردون عليَّ السلام.

أعرف الجميع، هم كما تركتهم بالأمس نفس الجلابيب البلدي المتسخة والأقدام الحافية وذات البيوت العتيقة الشائخة.

أسأل بيني وبين نفسي ماذا جنيت ليهجرني الجميع ويقاطعني الكل؟

لا شيء جديد في طريقي سوى العيون الزائغة عني والمتعلقة بسواي.

رجال يحملون الفؤوس أمامي يتجهون صوب الضريح يتمتمون بكلام لا أفهمه يشوشه صرير أسنان تصطك في غيظ.

كان ضريحه على مشارف البلدة في طريقك للمدينة يقف وحيدا عاليا منيفا وكأنه حصن.

تتبعت الحشد إلى ضريحه تترى خلفهم دعوات وتشيعهم شتائم، ذهلت لما وجدت من يعتليه محاولا هدمه، أيادٍ متشنجة ولحى طائشة تهشم هامته وتكسر تاجه.

- إنتوا بتعملوا إيه يا جماعة؟ بتهدوه ليه؟

أنادي عليهم بأسمائهم رجلا رجلا ...

لم يسمعني أو يلتفت إليّ أحد.

لم أتوقف عن النداء والصراخ حتى بح صوتي وخارت قواي، سقطت أرضا وعيني على مدخنة مصنع الطوب الأحمر وهي تنفث دخانها في الفضاء وكأنها بركان يوشك أن يثور يكتب عادمها في الفراغ طلسما وتعويذة أبدية.

تنكرت عيني لهم فلم أعد أعرفهم - و قد تبدلت الوجوه - وهم يتناوبون الهدم ابتداءً من القبة، سقوطها جعل شعاع الشمس في مواجهتي ولا سبيل للاحتماء.

أفزعني رؤية "المسخوط" وقد دبت فيه الحياة وهو ينازع لإخراج باقي جسمه المدفون في الأرض.

أعود أدراجي حثيثا تتساقط أشلائي المحترقة من لهيب الشمس في رتابة فتحلق فوقي كحماماتي وقت الغروب.

مازلت أقبض على منديلها المعقود بقبضة من حديد وقد تبدل كل شيء حولي في غمضة عين، لا بيوت عتيقة - أضحت عمارات خرسانية على الجانبين - ولا طريق ترابيًا ضيقًا - أصبح طريقا أسفلتيًا واسعًا تمرق فيه سيارات في الاتجاهين - حتى بيتي لم يعد موجودًا، صار قطعة أرض فضاء مكتوب عليها للبيع. لا أعرف لي وجهة ولا ألوي على شيء.

أسمع دبيب هرولة "المسخوط" من خلفي وأجيج المدخنة وقد استحالت تنينًا عاد ينفث نارًا فوق الرؤوس وصوت خبطات الفأس تهدم الضريح وتقترب من فتات عظام ترقد في سلام.

كعبّاد الشمس أجنح على الرغم مني نحو الشرق، قشة يجرفها السيل بلا إرادة.

أجري مستجيرًا صوب هرم هوارة وقصر التيه، لم أعد أخشى التيه ووعورته ولا الملك وكهنته وجنوده، تنتظرني هناك في حجرة من ثلاثمائة حجرة، أعرفها جيدًا، خريطتي الوحيدة شراييني تنساب بسيولة كلما اقتربت من حرارتها، وبوصلتي الوحيدة دقات قلبي تعزف لحنا شجيًا أمام باب حجرتها، ترتدي قميصا أرجوانيا من الحرير ممددة على ريش نعام، بلا وصيفات أو خدم، لأرتمي في أحضان أميرتي "نفروبتاح" وقد ملّت من طول انتظاري.

أهديها المنديل المعقود وقد أصبح زهرة لوتس برية. لأعود بين يديها مسخوطًا من جديد بحجم راحة يدها من حجر مرمر أبيض.

تمت

❊ ❊ ❊

موزاييك

"تزييقة" صوت "جزمتي" الجديدة تزعج المارة، نظراتهم الخادشة توحي بذلك، أشعر بأنها صنعت من جلد تمساح أفريقي بائس ساقه قدره إلى "جزمجي" مصري أشد بؤسًا، ألسنة الحر تلعق فى الفضاء وفحيح غضب جامح ينفث سمومه في الأُنوف، أتفادى بقدر الإمكان الوجوه العابسة وزبالة الشوارع وكراسي المقاهي المحتلة للرصيف.

obeikan.com

أطالع "اليافطات" في العمارات على الجانبين الدكتور... للمسالك البولية والعقم، الدكتور ...للنساء والتوليد .. الدكتور...سؤال لزج يطرح نفسه بلا مقدمات.

كيف كل هؤلاء الأطباء فى بلد مريض؟

موعد إعادة الكشف عند دكتور أمراض العقم والمسالك البولية بشارع بورسعيد، أعاني من مشكلات فى الخصية خاصة اليسرى، هي غالبا لا تعمل لعيوب خلقية ولم أستطع الإنجاب بعد عشرين سنة زواجًا.

أكره ثلاثة أشياء كره العمى وأتشاءم منها تشاؤم البوم "الفجل والحمير ورائحة شواء اللحم". بذلت جهدي لمعرفة الأسباب فعجزت. ربما بلا مسببات منطقية.

زحمة خانقة تكتم على صدري، أحاول عبور الطريق قبل أن تُغلق إشارة المرور، ضجيج وفوضى وسباب وبصق ورائحة شواء تزيد الطين بلة. أُصعق من صوت عربة طائشة تقتلعني من جذوري، أسقط أرضًا مغشيًا عليّ وعيني مُعلقة على "فردة من جزمتي" الجديدة طائرة فى الهواء.

١

أستفيق على صوت رخيم آلفهُ:

- نهارك سعيد يا مدام زكية .

إنه "سعيد أفندي نشأت" مستخدم فى محل "منيفاتوره" قريب.

- قوليلي من فضلك بكام الفجل اليوم؟

- الواحدة بمليم يا سعيد أفندي.

- عال ...عال اتفضلي يا هانم

وهو ينظر إليّ لا إلى الفجل

- مش بطّال.. ممنون جدًا.

هوجة عرابي أصابت القاهرة بالشلل ومنشور الخديوي توفيق يوزع فى كل مكان معلنًا عصيان عرابي ومروقه

obeikan.com

وبوارج الإنجليز تغازل الموانئ فى تبجح وأنباء عن خيانة وهزيمة قاسية في التل الكبير.

طرحتي الشاش السوداء انسلت عنها الخيوط وفي طرفها عَقدتُ ثلاثة جنيهات هي "تحويشة العمر" وملاءة لف سوداء كالحة أفترش عليها الأرض.

"مشنة" الفجل أمامي، أرشه بالماء بلا توقف ليظل طازجًا "ورور". يغمز لي "كمال" من خلف "البوفيه" فطالما راودني عن نفسي:

- اصطبح و قول يا صبح وهات كباية الزفت.

- جايلك فى الحال ... شاي فريسكا على مية بيضة للسنيورة وصلحووو

يستمر فى ترقيص حواجبه .. بحركة تستفزني

- مايكونش عندك فكرة يا جميل.

- إلزم محلك ع الصبح.. الكابريس بتاعي مش رايق

- الوصل يا غزال ...

ثم يدندن مع سلامة حجازي فى الجرامافون:

بسحر العين تركت القلب هايم .. ولا في القلب غيرك كل ليلة.

لا مفر من الردح أحيانًا...

- وصل مين وقلب مين يا ادلعععدي اسم الله يا أحمد يا عووووممممررررر .. شوباش واللي ما يشتري يتفرج.

يهرب إلى جحره ...

زوجي لم يعد منذ أخذوه لحفر القناة منذ ١٥ عامًا وقد انتهى الحفر وافتتحت القناة وأحمد عرابي يهدد بردمها من جديد.

تنطلق مظاهرة مؤيدة لعرابي من جميع الفئات والأعمار يهتفون ... تحيا مصر.. تحيا مصر.. يحيا عرابي .. الله ينصرك يا عرابي ..اللايحة اللايحة... مرفوضة مرفوضة

أطالع طلاب "البكالوريا" فى التظاهرة فى شغف باحثةً عن حمدي، "الوردروبا" يجهد العين فى البحث عنه، كأنك تبحث عن طائر بطريق وسط المئات منه على

obeikan.com

الساحل، أجهز له طربوشه الجديد كمكافأة على تفوقه فتفتش عيني عن رأس يعتليه طربوش باهت عتيق.

ألتفت بعيداً كي لا أرى حمارًا يجر عربة " كارو" ورجلاً يغني:

- رووووبابيييييكيا

وأسد أنفي حتى لا أشم رائحة شواء تنهمر من مشربيات إحدى البيوت، لا أكره من الدنيا سوى هاتين " رؤية الحمير ورائحة الشواء "

أعداد غفيرة وكأن المحروسة كلها فى باب الشعرية تنتفض، الزحف يقترب كمستعمرة نمل سفاح دك بعد لأي سور حصن منيع، خوفي على مشنة الفجل والطربوش الجديد أكثر من خوفي على نفسي، هرج ومرج واشتباكات لأُصبح فى طرفة عين هريسة تحت الأقدام.

أشعر بهبوط و"كرشة نفس"

- إسعفني يا كمااال كباية مية بسرعة، كمااا...

يختفى النبض و ينقطع النفس وأغيب عن الوعي.

٢

أستفيق فى قاعة القاضي الشيخ " دردیرى" على شخص يمسك بتلابيبي وألم يعتصر خصيتي.. يزعق بلا توقف - هذا هو قاتل حماري.

البلد على كف عفريت، العثمانيون أرادوا مصر و"سليم الأول" لن يتركها بعد الآن للمماليك.

"طومان باي" يَخلُف عمه "قنصوة الغوري" بعد مقتله فى "مرج دابق" ويرفض الخضوع ويخرج لمواجهته فى "الريدانية" وأنباء عن خيانة وهزائم متلاحقة وسقوط مدوٍّ.

أسلحة العثمانيين أحدث وأشد فتكًا

نقف في وسط القاعة، على اليمين غرفتان إحداهما للإعدام يتدلى منها حبل المشنقة والأُخرى للتعزير والجلد وحمام صغير على اليسار، القبة من طوب الآجر شاهقة فسيحة ونوافذ الأرابيسك تصنع بالضوء الأفانين على الجدران.

رائحة دماء وموت تتضوع فى المكان، البهجة الوحيدة في بياض الحجر الأبيض الجيري الذي يكسو الجدران

- وإن كان لا يخلو من بقع سوداء و " تلطيخ" دماء –

ورائحة خشب صندل يحترق تضفي على المكان قدسية ومهابة.

كرسي وثير في المنتصف مرصع بالأبنوس يبدو فاطميّ الطراز ما زال خاليا تستشعر هيبة صاحبه قبل عودته من صلاة الظهر.

لحظة صمت يتخللها نعيق غراب - يتحين فرصته للانقضاض على شيء - وحشرجة مجلود تمدد على "العروسة" وعيون تتعلق بقادم في تؤدة ووقار.

عيناه تقدحان شررًا ووجهه نحيف أمرد وعمامة على رأسه ملفوفة بعناية وعباءة سوداء مطرزة الحواف بماء الذهب وخاتم فضي كبير يجذب الأنظار فى خنصر يسراه.

- ما خطبكما؟

- هذا الرجل قتل حماري، ضربه بالحجر على رأسه حتى قتله

يتوجه إليّ بسؤال:

- اسمك؟

- أحمد عبد الجبار.

كومة من اللحم بجانبه تُدعى الكاتب يدون ما يسمعه، دواة الحبر أمامه استحال زجاجها أسود من الوسخ.

- سنك؟

- ٤٢ سنة

- محل الإقامة؟

- الخليفة بجوار مسجد الأمير شيخون القبلي

- عملك ؟

- سقّا.

- هل حقًا قتلت الحمار؟

- نعم يا سيدي القاضي.

obeikan.com

- لماذا؟

- ذاك الحمار رفسني.

- أين؟

- هناك عند حافة النهر.

- أقصد أين موضع الرفس؟

- فى خصيتي.

- ما حجم الضرر؟

أتلوى من الألم ببعض مبالغة:

- ضاعت خصيتي .. خصيتي اليسرى بالأخص

- ولماذا لم تتقدم بشكوى إلينا ضد صاحب الحمار؟

- لم أتمالك نفسي سيدي

- كيف تأذن لنفسك بقتل حمار ناهيك عن أنه ليس من أملاكك؟

- إنه الغضب سيدي.

obeikan.com

- غرامة دينارين و يعزّر بثلاثين جلدة على قدميه حتى يتمالك نفسه عند الغضب.

أصرخ بهيستريا ...

- العدل ...العدل

يقتادونني إلى جحرة الجلد، يضعون قدميَّ في " الفَلقة ".

ألم الضرب ووجع الخصية وقلة الهواء مع رائحة شواء من تكية السلطان الأشرف قايتباي تنسرب فى المكان جعلوني يغشى عليَّ.

obeikan.com

٣

أستفيق على صوت أذان خافت من مئذنة جامع الأزهر من أمام باب المزينين.

خروجي الآن مهمة شبه مستحيلة ولكن ليس منها بُد.

القاهرة خاويةٌ على عروشها، حارة "برجوان" بلا نفس وشارع "المعز لدين الله" بلا حراك والمجاعة لم تنقشع منذ سنوات وجثث الموتى ملقاة في الطرقات يأكلها العفن.

نهر النيل منسوبه في الحضيض والخليفة المستنصر بالله يبيت على حصيرة في القلعة لا يجد ما يسد رمقه وبدر الدين الجمالي قادمٌ من "عكا" فى مهمة إنقاذ تملؤها الشبهات والريبة.

أتوجه إلى أختي من باب الفتوح إلى الباطنية لأشحذ منها بعض الدقيق فقد أضحى أغلى من الذهب، وما قيمة الذهب إذا لم يجد ما يشتريه، لا دبيب حياة ولا قطط نافرة أو كلاب ضالة.

حبذا لو وجدت قطة أو كلبًا الآن فقد تجاوز سعرهما خمسة دنانير.

ظلام دامس وهدوء مروع ، بعد العشاء لا باب يُفتح ولا شباك يُشرع ولا "قُلة" ماء يترقرق ماؤها.

لم أنتبه إلا وخطاطيف تشبثت بجسمي لأبدو كسمكة في شص وهناك من يهمس لآخر:

- يا فرج الله ... يا فرج الله

- سريعًا سريعًا قبل أن ينتبه أحد.

ويشداني للداخل.

صرخت صرخة مدوية ثم كتم أحدهما على فمي بقطعة قماش مبللة، تركه مساحة لأنفي للتنفس أشعرني بارتياح، تتلمظ شفاههم على لحمي الطري البض، كنت سمينة بما يكفي، بلغت الثلاثين من عمري منذ شهرين، نفق زوجي وولداي في الشدة.

يمضيان نصف ساعة وأنا أجاهد وأحاول الخلاص وهما يحاولان تقييدي جيدًا وتجريدي من ملابسي.

أمسك أحدهما سكينًا وقطع قطعتين من لحم فخذي وأنا أتلوى من الألم ناظرةً إليه بتوسل.

شممت رائحة شواء لحمي فاحتضر قلبي معترضًا على بشاعة الحدث وآلام فخذي المقطوعة تعادل ألم ولادتين فيفيض جسمي العاري ماءً ويسيل لعابي من فمي بلا ضابط لأغرق فى عرقي وريقي ودمي بلا وعي.

❊ ❊ ❊

" يا أُستاذ.. يا أُستاذ.. مش تاخد بالك؟ "
عيني شبه مفتوحة.. أرى خلقًا كثيرًا وألسنة تتحرك تحدث صريرًا مزعجًا والسماء تبدو حُبلى بحدث جلل ينتظر أوانه.
- أنت كويس؟ الحمد لله، قدر ولطف.
فتحت عيني بالكاد وأنا فاقد القدرة على النطق، أشعر ببشاعة دهسي بالأقدام ومهانة الثلاثين جلدة على رجلي، وغشم رفسة الحمار فى خصيتي، وخزي وركي وقد نقصت منه قطعتان، لا أعلم من أنا تحديدًا ولكني علمتُ الآن فقط لماذا أكره "الفجل والحمير ورائحة الشواء"

تمت

❊ ❊ ❊

" وتبقى الفزاعات "

كبست أمي زر النور طالبةً مني أن " اتخمد " لأصحو باكرًا ردًا منها على سؤالٍ لا أرى حماقته:

- هيقبلني يا أمي ... بجد هيقبلني ؟

وأنا " أمط بوزي " إليها بفضولٍ عميق لمعرفة تنبؤاتها التي لا تخيب، فغدًا سيصطحبني أصحابي في دُغشة الفجر لأعمل معهم في فرقة كشافة "دودة القطن"

obeikan.com

كنتُ طفلاً مدللاً ينتمي إلى أسرة من تلك الأُسر التي تحسبها أغنياء من التعفف، لذلك إلى جانب نباهتي في المدرسة لم يطلب مني أحدٌ قط أن أعمل في هذا السن المبكر، ولكنها بدايةً رغبةً مني في المشاركة، وثانيًا والأهم حكاوي أصحابي عن متعة العمل في الحقول ولا سيما حينما أجد " لُطعة " وأموء بصوت متموج ممدود:

- لووووطططعة.. لووووطططعة

تمددتُ على سريري أستحضر النوم وأنا أجاهد في رسم صورة لي غدًا بين شجيرات القطن وهي ما زالت "نوار " مسدلة الجفون.. وأحسب أنني ما أغمضت عيني حتى سمعت صوتهم يتهادر بالخارج:

- يا عبد الله ... يا عبد الله

فززت واقفًا وأيقظت أمي لتودعني كما كانت تفعل مع أبي قبل خروجه على المعاش، صنعت لي "صُرة " أكل آخذها معي لغدائي، أرمق أبي بنظرة حانية وهو مغموس في لحافٍ عملاق وأنطلق معهم يسيطر عليَّ هاجس لجوج من ليلتي. ضآلة حجمي، أكاد أجزم بأني لن أروق لهذا المشرف المسؤول عن تنقية الأولاد وفرزهم، فأنا قصير القامة جدًا نحيف بشكل مبالغ فيه

وأبدو أصغر من سني سنوات، إلى جانب حسن مظهري ونظافة هندامي.

تجمعنا معشر الأولاد منتظرين هذا المشرف، أناجيه فى صمتي ألا يُشمت فيَّ أحدًا وألا يعيدني إلى أمي كما ذهبت، جاء أخيرًا، يفرز الأولاد واحدًا تلو الآخر.

أتصور أنه يختار الطويل فالأطول والسمين فالأسمن، لم يبق غيري، أيقنت أنه لن يخذلني ويجعلني أعود وحدي.

- أنت ابن عم جمال السويسي؟ هكذا سأل، أومأت له بالنفي:

- لا أنا عبد الله أبو الشيخ.

- وإيه الهدوم اللي انت لابسها دي؟ انت جاي تتفسح؟

- ممكن أروح ألبس غيرها. "نطقت مرعوبًا"

- انت كام سنة؟

- عشر سنين. " قلت فى ثقة "

- ماعتقدش ...

رد وهو يضحك بصوته السمج وتركني وانصرف عني والأولاد حولهُ كالذباب.

أبقى وحدي كنعجة شاردة هجرها القطيع، يساورني سؤال لماذا لم يأخذني؟

هناك من هو أقصر مني قامة وأنحف عودًا، وماذا لو أجبته بنعم أنا "فلان بن فلان" هل كان سيقبلني؟ ليتني كذبت.

أتأبط "صرتي" وأعود أدراجي وعيني كمنابع نهر يصب في حلقي، لقد صدق حدسي، فإن جئت للحق كنت أنا أصغرهم حجمًا، فالأقصر طولاً كان أعرض جسمًا والأنحف جسمًا كان أطول قامة، كان علي ألا أحاول من البداية.

تنبهتُ إلى شيءٍ في طريق عودتي لم أره في ذهابي، أوقف نشيجي فزاعات متعددة الأشكال والألوان كثيرة بشكل يفوق الوصف حتى خلتها أكثر من العصافير المراد إفزاعها فى خضرة المكان اللامتناهي، أقارن على الرغم مني قامتها بقامتي فألفيتها تناطح السحاب، أصل إلى أمي محتضرًا تحتضنني وتُربت على كتفي وتطلب مني أن أنتظر للسنة القادمة حتى يشتد عودي.

أدركت حينها أن الأحلام لا تفترش الأرصفة ليبتاعها الغادي والرائح، الفارس والمترجل، وأن الفزاعات لا تُصنع هباءً وترفًا، ولكن لا شك فى أنها فوق الحاجة.

تذكرت هذا كله وأنا في طريقي إلى عملٍ جديد تملؤني نفس الشكوك القديمة. لم تُثر مخاوفي البنايات الشائهة على الجانبين وقد التهمت العصافير والحقول ولا أن يتربع مركّب نقصي مقتعدًا الأرض فى نهاية الطريق، ولا حتى الترقب لرؤية الفزاعات الحديثة بعد مرور أعوام ووقع منظرها عليَّ وقد اشتد عودي بقدر ما كان من غياب "صُرة" الأكل تحت إبطي وتلك اليد التي كانت تُربت على كتفي بعدما أُملّي عيني بسحن الفزاعات.

تمت

❊ ❊ ❊

غدًا سيصلي

كان النهار توًا يغرس أنامله في شعر الليل الكثيف لأتسلل معها عبر خصلاته متقد الذهن يملؤني الشبق كما لم أكن من قبل، ضربت لي موعدًا مع أذان الفجر حيث إن والدها عفا عنا وقرر أخيرًا أن يخليّ بيني وبينها بمقدار ما تستغرقه صلاة عجوز في مسجد يبتعد عنه خطوات.

obeikan.com

هي من أولى المرات التي أرى فيها الفجر حتى خِلت هذه الوجوه القليلة المبعثرة بقايا يوم يجرّر أشلاءه كيومي رغم "الكريكات" والفئوس المعلقة على كواهلهم وبذل عمال البلدية التي تفوح منها رائحة الصابون.

كان لقائي معها مستحيلاً في ظل الوضع الراهن، فهي لا تغادر المنزل قط بحكم صادر من الحاج سيد أخيها الأكبر والقاطن على مقربة منها لما فاح حولها من شائعات مؤخرًا وإن كنت بمنأى عن هذه الشائعات. ورغم أن الجنس ليس من الأشياء التى أعنى بها حبًا لدرجة أن أتسلل إلى بيت امرأة متزوجة تكبرني بعشر سنوات و "أشهر من نار على علم"، لكن كان شوقي إلى قص التجربة على أصحابي والمباهاة بها يفوق كل ما عداه.

كان أبوها يسكن معها منذ سفر زوجها للعمل بحكم صادر مع نفس الحكم السابق، وهو رجل مسن لا يبرح المنزل إلا ليجلس أمامه، تبلورت لديها فكرة شيطانية وأخبرتني بها فطارت رأسى فرحًا وأعجبت بها أيّما إعجاب، وشرعنا منذ عشرة أيام أو يزيد فى التنفيذ، وهي أن تلح على أبيها ليخرج لصلاة الفجر متوعدةً إياهُ بالعذاب الأليم إن تباطأ والنعيم المقيم إن تجاسر، خاصة

وأن المسجد منه على بعد خطوات، ناهيك عن أشرطة "كاسيت" لعذاب القبر وتارك الصلاة ولماذا لا تصلي وفضل صلاة الفجر ... إلخ

كنت أتحدث مع "هدى" وكلّنا أمل أن يهدي الله الرجل سواء السبيل.

الفكرة أصابت، فها هي تتصل بي وتخطرني برغبة والدها فى الخروج لصلاة الفجر.

كان الجو باردًا حقًا ومطر الأمس مازال يلفظ أنفاسه وأنا أطوي المسافة بخطوات قصيرة سريعة، لاح لي منزلها في الأفق وقد أضاءت لمبة في مدخل البيت حتى يتسنى لي رؤية المنتظر كالهلال.

يوخزني البرد مع صوت المؤذن المقزز ذي المخالب وكأنه يخربش الرجل ليهم بالرجوع. أنتظر طويلا أمام البيت وعيني معلقة على الباب الحديدي المصمت أحدجه بنظرات لاهثة ودقات قلبي كطلقات الرصاص حتى يقيم المؤذن للصلاة ويبدأ الإمام في ...

- استقيموا يرحمكم الله .. ساووا ....

ولم يخرج هذا الفاسق فأعود أدراجي قد لفحني البرد ليجيئني صوتها عبر الهاتف منكسرًا حزينا

- غدًا سيصلي.

تمت

❊ ❊ ❊

obeikan.com

شجرة الكافور

كنت هناك متربصًا خلف شجرة الكافور العملاقة أنظر بنصف عين إلى الطريق من خلف جذعها العملاق وكأنني لص.

تلك الشجرة الأزلية الرابضة هناك بين المقابر والتي ينزف لحاؤها دمًا وتبيت على ذؤابتها الجنية " أم شوشة" ترمق الجميع في تمعن باحثة عن فريسة جديدة كل يوم.

obeikan.com

لهـا عيـون صـقر ومخالـب نسـر وأنيـاب ذئـب، ولـدت عجـوزًا وتوقـف عنـدها الـزمن، شـعرها هـائش علـى الدوام.

حكى لي جدي أنه ذبح " عسكري إنجليزي " ذات مرة " بالمنجـل " ودفنـه تحـت جـذورها فـي أحـداث ثـورة ١٩١٩ "ولا من شـاف ولا من سمع" ولكنـه لـم يستطع حكي تلك القصة إلا بعد رحيل الإنجليز.

هو الآن مدفون مع زوجاته الأربـع علـى مقربـة من تلك الشـجرة الملعونـة، ربمـا صـار هنـاك فـي العـالم الآخـر "بحكم الجيرة" صديقًا لذلك الجندي الإنجليزي المقتول.

كنـا نـدنو صـغارًا متكـومين علـى مقربـة منهـا يملؤنـا الخوف صانعين بأيدينا هيئة "تلسكوب" ومنبطحين علـى بطوننـا بـاحثين عنهـا علـى قمـة أغصـانها منتظـرين بالساعات في سكون رخيم ليهمس لنا أحدنا بالنهاية:

- آه.. شفتها يا عيال فوق خالص أهي دي تخوف قوي.

هكذا نطق علاء وهو يرتجف - هو الآن تاجر ثري –

لكن لم يرها غيره لنعود المسافة إلى بيوتنا جريًا ككلاب ضالة مذعورة من خرطوش الغفير المكلف بقتلها من البلدية.

و نهارًا كنا نقترب منها أكثر قاذفين إياها بالطوب لتنزف دمًا قانيًا ظانين أنه دماء الموتى تمتصه جذورها الضاربة في العمق عوضًا عن الماء.

- أهي نزلت دم أهي .... الطوبة بتاعتي نزلت دم.

هكذا صاح "روبي" في سعادة - هو الآن إمام مسجد - ولم تنزف إلا من طوبته لنعود أيضا جريًا في شيء من اللهو هذه المرة إلى البيوت.

دار كل هذا بمخيلتي وأنا ما زلت هناك أنظر بنصف عين أنتظر قدومها بفارغ الصبر.

واعدتني أن تأتي الساعة الثامنة وهي الآن جاوزت التاسعة ولكني سأنتظر. القطار لن ينطلق قبل العاشرة، صورة قضيبيه هناك على مرمى البصر وكأنهما رجلا كائن أسطوري قدماه هنا ورأسه في المدينة.

شدة البرودة مع الظلام الموحش وهسيس الموتى من حولي ولعنة دماء الإنجليزي تحت أقدامي ونظرات "أم شوشة" الثاقبة جعلوني أرتعش كما لم أفعل من قبل ليستبد بي الخوف ويتآمر عليَّ الجميع.

فحالما تقدمت لخطبتها لم أكن لأتخيل أن ماضيَّ القذر مازال عالقًا بالنفوس بعد سنوات العزلة التي فرضتها على نفسي "قبل الأوان" ليخطبها ثري خليجي تجاوز الستين تفوح رائحة النفط من عقاله وغترته.

معي بعض "هلاهيلي" القديمة في شنطة أحملها على ظهري فقد قررت ألا أعود.

طلبت منها أن تأتي فقط "بالهدمة اللي عليها" لنهرب من تلك البلدة الظالم أهلها فوافقت بعد إلحاحي على مضض.

أجلس على الأرض أدخن سيجارة، أتمدد لدقائق، أجلس من جديد، أقف، أنظر في الساعة، هي الآن العاشرة إلا دقائق.

صوت صفير القطار يهم بالذهاب، هو آخر موعد للقاهرة، تقودني قدماي كالمنوم إلى بيتها، أتسمع أنفاسًا

وشـخيرًا ولا شـيء يـدعو للريبـة، يبـدو أنهـا حتـى لـم تحـاول. سـاحت أفكـاري وأنـا أسـند رأسـي علـى جـدار البيت باكيًا منتحبًا ليوقظني صوت الغفير زاعقًا:

- مين.. مين هناك؟

جريت بعزم ما عندي متعثرًا فـي حنينـي ملتقطًـا شنطتي بصـعوبة لألحـق بالقطـار الأخيـر، مـازال يخـامرني شـك أني سـأجدها بالقطـار كمفاجـأة سـارة – قصـدتها - ولكنـه الوهم عندما يستبد بالعاشق.

كل هذا طفر علـى ذاكرتـي لمـا سـألني ابنـي مشيرًا من زجاج نافذة السيارة:

- بابا بابا... إيـه الشـجرة الغريبـة دي؟ أنـا حاسـس إن أنـا شفتها قبل كدة.

لأنظر إليه ملتمسًا قراءة ما يجول بخـاطره وأنـا مـا زلـت أتكتم أنفاس تلك الليلة منذ عشرين عامًا من الغربة.

تمت

❊ ❊ ❊

"ريحانة"

لم يكن الكنز فقط هو الذي يشغله وهو يمضي إلى القارب الملقى على شاطئ البحيرة والظلام مستوحش مستهديا بنور الذاكرة ليس إلا.

ما عاد يسمع صرخات أمه - ذات ليلة - تتوسله بالعدول عن قراره كي لا يجدد عليها عذابات القدر.

obeikan.com

كذلك لم يلتفت إلى" ريحانة " وهي تهمس له بالرجوع، قطة مذعورة تختلس النظر إليه من خصاص شراعتها ذات الضلفة الواحدة والمكتوب عليها بخط طفلة "هذا من فضل ربي".

ولم ير الكلاب الضالة يكهربها الصقيع فتنبح بأصوات مبحوحة لا تتنامى إلى مسامعه.

كانت تشغله أيضا بحيرة قارون التي راحت تتكشف رغم الظلمة، تلك البحيرة الواقعة على الخط الفاصل بين الأسطورة والتراث.

فما كان اختياره لتلك الليلة السوداء "الغطيس" محض صدفة ولكن حتى لا يتسنى لأحد رؤيته وهو في طريقه إلى المجهول.

منذ وقت ليس ببعيد بدا جموحًا ثائرًا، وحتى أسماك "البوري" التي كان يتملى من أديمها الأبيض اللامع ما عاد يقوى على النظر إليه، ربما لمعان قشرتها يوقظ بداخله لألأة الكنز المدفون ربما على قيد خطوات من

القصر[1] المهجور الرابض فوق الساحل، ذلك القصر الذي يلعن كل صباح تلك البحيرة التي ابتلعت ذات ليلة صاحبه مضرب الأمثال في الثراء لتسكنه الأشباح والخفافيش بعدما كان مرتع الذات والنعم.

وعلى رغمه سبح عقله يعبر البحيرة وهو يحلم بقارب يشتريه من حر ماله ومكتوب على جانبيه "ريحانة" بالبنط العريض.

لم يعرف أن بالجانب الآخر من البحيرة كوخًا من البوص تسكنه امرأة تعرف أباه جيدًا أو أن قطاع الطرق هناك يتربصون في شغف بالحالمين بالكنز.

لما لم يرجع أبوه من رحلة صيده الأخيرة قالوا إنه أراد الكنز فاستحلت وحوش البحيرة المفترسة دمه، ولكنه لم يصدق يومًا تلك الرواية المزعومة.

أغلقت الأم المكلومة الباب على صغارها وحكت لهم أن أباهم أراد الكنز فاستحلت وحوش البحيرة المفترسة دمه ولكنه أيضًا لم يصدق أمه.

١: قصر يوناني روماني : لا تربطه علاقة بقارون صاحب قصة موسى عليه السلام.

أخبر ريحانة فقط بما يراوده بعدما وعدها بالعودة إليها وكتابة اسمها مع اسمه بالنبط العريض على قاربه "حسن وريحانة " فوعدته أن تسهل له الطريق بأن تخبره بليلة سفر أبيها إلى المدينة ليستقل إحدى قواربه، ولكن يبدو أن ريحانة أفلت لسانها فأخبرت أحدًا بما يدور في خلده.

لمّا اختفى أبوه وقاربه منذ ثلاث سنوات لم يكن قد تجاوز الثامنة من عمره، لم تظهر عليه بوادر الجنون كما قيل وأي جنون - إذا صدقوا - في قلب تطلع إلى حلم دفين تجتره كل القلوب سافرة إذا غابت عنها العيون؟

عشرات مثل أبيه اختفوا فقالوا إنهم أرادوا الكنز فاستحلت وحوش البحيرة المفترسة دمهم. ولما اختار تلك الليلة حالكة السواد لم ير من يتربصون به على مقربة من القارب المروم، قالوا وهُم يضربون كفًا بكف:

- الواد اتجنن زي أبوه يا جدعان

- امسكوه الحرامى دا

- اضربوه وعلموه الأدب

صوتت الأم وهي تقبض عليه بيديها:

- حسن .. حسن .. سيبوا الواد يا كفرة.

فلم يحمه حُسن طالعه من العصا الغشوم المنهالة على عوده النحيف ليضحي في دقائق منفوخا كالذبيحة تختلط دماؤه بظلام ضرير في الأفق وماء آسن في البحيرة وقارب كسيح يأبى المسير.

وريحانة هناك ما زالت تختلس النظر أذابها الخوف فلم يتبق منها إلا جوهرتان تشاهدان بلا روح و تسجلان بلا وعي.

أعادوه إلى بيته مغشيا عليه مازال يهذي:

- ريحانة ... ريحانة

وهو مازال يحلم بقارب يشتريه من حر ماله ومكتوب على جانبيه "ريحانة " بالبنط العريض.

تمت

❊ ❊ ❊

ألزهايمر

زخات المطر فوق رأسه كالحصى، تغوص قدماه في الوحل حتى الركب، القمر محاق والقرية تغط في نوم عميق، شخرتها تعلو ممزوجة بنقيق الضفادع وصفير الصراصير البحرية.

يكاد لا يرى الطريق ولكن قدميه تحفظانه عن ظهر قلب.

obeikan.com

يبدو كقطاع الطرق باللثام المغطي لوجهه كله فيما عدا عينيه.

يلتفت إلى الوراء ويرنو لبيت وحيد بابه مفتوح دونًا عن بقية البيوت ينبثق منه ضوء خافت، بعض رجال على وجوههم كآبة كقارعي طبول الحرب، وشاب في العشرينات بلغ غضبه الزبى، يتحرك بعصبية، همّ أن يلحق به فأشار إليه قاطعًا بالبقاء مع الآخرين.

ودّ لو طال الوقت ليشرح له أن كل ما يعنيه حمايته هو ليس إلا، لذلك سيقتلها بعيدًا بعيدا.

ثمة امرأة كتلة من سواد تولول في صمت وتلعن الساعة التي أخبرته فيها بشكوكها.

"فاطمة بنتك مش بكر يا حاج"

تستعطفه بالعدول عن قراره ليدفعها الشاب بعنف داخل البيت ويغلق الباب.

يجرّر شوالا من الخيش مربوطًا بإحكام بحبل ليفي طويل، يبدو ثقيلا للغاية ينظر إليه في قرف ويبصق عليه بحركة رتيبة لا إرادية.

"لن يغسل عارك إلا الغرق في مياه النهر، سيجرفك التيار بعيدا، ستتغير ملامحك فلن يستدل عليك أحد. ستقيد الجريمة ضد مجهول. وحتى لو حكموا عليّ بالإعدام لا يهم"

الطريق ليس طويلا والقرية كلها تنحدر نحو النهر والأرض زلقة والشرف غالٍ.

ومضات البرق تكشف أمامه الحجب، تختفي فيتخبط في ظلام أشد قسوة.

همهمة مكممة تخرج من الشوال بين الحين والآخر كقطة تموء، احتكاك عظامها بالأرض يحدث صريرًا مزعجا.

يستوقفه مشهد لكلب وكلبة يمارسان الحب تحت شجرة كرم، استفزه المنظر فقذفهما بحجر، لم يفلح، اقترب بعصًا غليظة يضربهما للتفريق بينهما ولكن انزلقت قدمه فوقع على ظهره، ابتعد الكلبان ينبحان وهما ما زالا متعاشقين، شيء ما ظل يربط بينهما.

قام بصعوبة متحاملا على قدميه، لوهلة شعر أن هناك شيئًا ما خطأ.

"ما هذا المكان؟ من جاء بي إلى هنا؟

ما الذي يحدث لي؟ ربما كابوس أقرب ما يكون للحقيقة وسأستفيق منه بعد دقائق"

يشعل سيجارة بصعوبة من رعشة عنيفة اجتاحته مع موجة هواء باردة، ينفث الدخان بعنف في مواجهة قطرات المطر الثقيلة، تبرق عيناه بقوة وهو يحدق في الفراغ، يصمت لدقائق ثم ينهض واقفا متعجلا:

"نعم هذا ما تستحقين أيتها العاهرة"

يمسك بالحبل ويستكمل الجر من جديد، يتحسسها، مازال فيها النفس:

"قريبا سينقطع لا تتعجلي"

"أووووه... أووووه... أووووه"

ترد عليه متوسلة بتأوهات مخنوقة أشبه بهمهمة الخيول الحبيسة.

"لقد أخطأت لما قبلت أن تستكملي تعليمك، ما كان لك إلا المكوث في الدار، بنات أعمامك الآن أمهات.

أوصل بك الفُجر أن تفعلي هذا؟!

من هو وكم مرة عاشرك أيتها الفاجرة؟ موتك لن ينقذه من الموت وكتمانك لن يجعله مجهولا للأبد"
"ما هذا الجو الغريب؟ السماء لم تمطر هكذا من قبل؛ ما بال قطرات الماء تكبر كالحجارة؟ أهذا مطر حقًا أم هناك من يقذفني بالطوب ولا أراه؟

سألقيك في النهر كالحيوانات النافقة لتأكلك القراميط فهي تتغذى على الرمم، وأعدك أني لن أذوق القراميط بعد اليوم.

أنسيت ثمرات التوت التي كنت أقطفها لك في الفجر؟

أنسيت عناقيد العنب التي لم أكن آكلها إلا معك؟!

كم كنت أحبك"

ساحت دموعه واستشعر بسائل بارد يجري في عروقه أشعل جراحه.

"كح كح كح ملعونة السجائر وملعون البرد"

راح في نوبة قوية من السعال، كادت روحه أن تخرج، سكت هنيهة وزاغت عيناه.

راح يتلفت حوله مستغربا المكان والزمان، يحدج الوجود كله بنظرة ناقمة.

"ما الذي أخرجني في هذا الجو العاصف؟ هل قامت القيامة؟ وما هذا الحبل المربوط على وسطي هل كنت أنتوي الرقص ؟!

لماذا لا أستطيع السير، وما هذا الثقل الذي يبطئني؟

من أنا أصلا ؟"

obeikan.com

لم يكن يعلم أنها أعراض ألزهايمر ظهرت عليه منذ فترة ولكنه كان يكابر.

في المرة الأخيرة لم يعرف كيف يعود إلى بيته ظل جالسًا أمام الجامع الكبير كالطفل التائه الذي لا يعرف اسمه، لا يعي ماذا عليه أن يفعل إلى أن التقطه أحد أقاربه وأعاده إلى البيت.

اقترب النهر، بدا ماؤه الرقراق فضيًا معتمًا، أحس براحة، شم نفسًا قويا واسترخى قليلا.

"هل أستحق منك هذا العار؟

كيف سأرفع رأسي من جديد؟

سأقتلك وأتباهى بأني قتلتك

أنسيت أول كراسة وأول قلم رصاص؟ أول علبة ألوان وأول حقيبة مدرسية؟!

مالك لا تنطقين؟!

ولماذا الطريق طويل هذه المرة؟ هل ضللت الطريق؟

هل أمشي في مكاني بلا تقدم للأمام؟

يستأنف المسير وهو يرغي ويزبد، تبدو رأسه في الظلام كجمجمة مخيفة بها ثقبان يلمعان.

يستوقفه نعيق غراب فوق رأسه مباشرة على حين غرة، أصابه بالهلع، سقط أرضًا، كان الخوف يملؤه، لم يقدر على الوقوف، تمدد على الأرض وأخذ يلهث من التعب، نبضات قلبه تتسارع، يهدأ قليلا ويشعل سيجارة أخيرة معه، بدا مهزوزًا يتصبب عرقا باردًا.

"لماذا أنا هنا الآن ؟"

عادته النوبة من جديد ولكنها أكثر حدة عن ذي قبل، ما عاد يذكر شيئا

"لماذا جلبابي غارق في الطين ؟"

ما تزال يده قابضة على الحبل بقوة "ما هذا؟ هل هو كنز ؟"

يفتح الشوال بتؤدة، تلاقي ناظريهما أحدث شرزًا كهربائيا أضاء المكان. دهش لما رآها فتاة في ريعان الشباب تنتفض من الخوف والبرد، هناك آثار ضرب

وتعذيب وسحل على جسمها وبقع دائرية كبيرة من الدماء أسفلها.

تبدو عارية بغلالة رقيقة مبلولة على جسمها الأبيض الرقيق تصفه بعناية، ترنو إليه مذهولة وهي تحمي وجهها براحتيها كلما حرك يديه، مازالت تنزف من أماكن متفرقة، فكر أن يحتضنها و يقبلها ما بين عينيها ولكنه خاف من ردة فعلها فهي لا تعرفه.

فكر أن يسألها عن كل شيء ولكن ذاكرته لم تسعفه وعقدة في لسانه منعته عن الكلام.

فك القيد من يديها وقدميها، خلع جلبابه المبلل وألبسها إياه وهي تنظر إليه مستغربة في وجل، تمسح بقايا طين على وجهه في حنان، أشار لها بالرحيل، لم تنتظر حتى تلتقط أنفاسها، تركت ساقيها للرياح وانطلقت بسرعة البرق، تابعها قليلا وهي تجري وتسقط كل خطوتين تلتفت وراءها كالهارب من الموت، نظراتها قلقة حائرة مذعورة.

تساءل في نفسه مشمئزًا: "من هي؟ ومن فعل بها هذا؟ لماذا؟"

نظر إلى نفسه منتشيًا وهو بالكلسون والفانلة الداخلية، تمدد برهة على الأرض وقد خفت المطر وبدأ نور الفجر يشقشق خجولا.

أسقط اللثام المترهل وكشف عن وجه رائق صبوح، فكر في أخذ غطس في ماء الفجر الدافئ وجمع بعض حبات التوت لشخص ما عزيز عليه وهو يكمل طريقه حثيثا منزلقا في اتجاه النهر.

تمت

❊ ❊ ❊

obeikan.com

obeikan.com

الفهرس

إهداء ٥
عم بسطان ٧
المقبرة ١٣
جزيرة البط ٢٢
المسخوط ٣١
موزاييك ٣٧
وتبقى الفزاعات ٤٤
غدًا سيصلي ٤٨
شجرة الكافور ٥٤
ريجانة ٦١
ألزهايمر ٦٦

obeikan.com

obeikan.com